المحاضرة الرابعة: النظريات المحدثة المفسرة للإنحراف ج2

3. النظريات السوسيولوجية

على عكس النظريات البيولوجية والسيكولوجية التي تفسر الانحراف من المنظور الفردي، فالنظريات السوسيولوجية تفسر الانحراف بالظروف الاجتماعية والمادية للظاهرة الانحرافية، وهي ذات عدة اتجاهات جغرافية اقتصادية اجتماعية وثقافية... وفيما يلي تتطرق إلى فهم اتجاهين أساسيين:

3-1- الاتجاه الاقتصادي

حاول بعض الباحثين الربط بين الانحراف بالواقع الاقتصادي والظروف الاقتصادية للفرد. ومن أبرز من ربط بينهما العالم **وليا مأدريانبو نجير William Adrian Bonger** ، حيث ربط بين الرأسمالية والجريمة في المجتمعات التي تأخذ به كنظام اقتصادي فيقول: أن الميول الأنانية القوية التي يتسم بها النظام الرأسمالي تؤدي إلى ضعف الغريزة الاجتماعية، كما تضعف الميل نحو الأفعال الأنانية وبالتالي نحو الجريمة التي تشكل إحدى صور هذه الأفعال.

كما وضح **Bonger** أن الظروف المادية وبالتالي المناخ الفكري للبروليتاريا سبب أيضا في عدم ارتقاء المستوى الخلقي لهذه الطبقة، كما أن عمل الأطفال يؤدي بهم إلى الاحتكاك بالأطفال الذين يفسدون أخلاقيتهم وأن ساعات العمل الطويلة على وتيرة واحدة يؤدي إلى الفضاضة لدى من يجبرونها عليه، بالإضافة إلى ذلك فالظروف السكنية السيئة تسهم في الخطاط الحس الأخلاقي، كما يؤدي إلى هذا أيضا الفقر والبطالة.

فللفقر آثار هامة على الفرد والأسرة، فسوء الظروف المعيشية والحاجة والبطالة تترك آثار نفسية كالقلق واليأس والثورة والحق على القانون والمجتمع، مما يؤدي إلى الشذوذ السلوكي والإدمان على المسكرات والمخدرات.

فأشار محمد سلامة غباري في كتابه أسباب جنوح الأحداث": "أن الطفل الذي يجد نفسه من أسرة فقيرة يعاني من حرمان اقتصادي، كما أنه يتعرض لبعض الظروف التي تتميز بها الأسر الفقيرة مما يؤثر على العلاقات الاجتماعية، ويدفعه إلى الشعور بالحرمان المادي الذي قد يغذي اتجاهات ومشاعر خاصة كالشعور بالجسد والحقد والكراهية، بالإضافة إلى مشاعر النقص والقلق، وكل هذا جو مناسب لنمو الاتجاهات العدوانية والسلوك المنحرف فالطفل الذي يجد نفسه من أسرة فقيرة يعاني من حرمان اقتصادي، كما أنه يتعرض لبعد الظروف التي تتميز بها الأسر الفقيرة، مما يؤثر على العلاقات الاجتماعية، ويدفعه إلى الشعور بالحرمان المادي الذي قد يُغذي اتجاهات ومشاعر خاصة كالشعور بالجسد والحقد والكراهية بالإضافة إلى مشاعر النقص والقلق، وكل هذا جو مناسب لنمو الاتجاهات العدوانية والسلوم المنحرف.

أيضا يحدث عكس ذلك حسب **Bonger** حيث أن التفكك الأسري الذي يظهر في فترات الرخاء والرفاهية الاقتصادية يساعد على الانحراف والجريمة، ففي هذه الفترات تكثر الأعمال وتتدفق النقود، وتشتغل النساء فيبتعدون عن المنزل، ويضعف الإشراف على الأطفال مما يدفعهم لسلوك طريق الانحراف دون أن يحس أوليائهم.

2-3- الاتجاه الاجتماعي:

يستخدم أنصار هذا الاتجاه كمحاور أساسية في تفسيرهم للسلوك الإنحرافي، الثقافة والنظام الاجتماعي والعمليات الاجتماعية، وهم يرون أن السبب الذي يرجع إليه السلوك الإنحرافي يتعدى التفسير الفردي ولا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة بنية المجتمع ومؤسساته أي بيئة المنحرف أو الجانح بشكلها الواسع، وكيف يمكن أن تؤثر هذه البيئة على بلورة سلوك الفرد بصورة مباشرة أو غير مباشرة والذي قد يدفعه إلى ارتكاب الجريمة أو السلوك المنحرف وحتى بعد تلقيه العقاب العود إليه.

أ - نظرية اللامعيارية

من رواد هذه النظرية **أميل دوركايم Emile Durkheim** الذي يرى أن الجريمة ما هي إلا ظاهرة تمتد جذورها وترتبط بالأوضاع الاجتماعية في المجتمع، كما تعبر عن حركة التغيير الاجتماعي ونوعية الثقافة والمستوى الاجتماعية والوضع الحضاري لأفراد ذلك المجتمع، كما يعتقد باستحالة القضاء على هذه الظاهرة والتي لها ارتباطا وظيفيا معينا.

كما استخدم **ميرتون Merton** مفهوم اللامعيارية التي استخدمها **دوركايم** بأن حالة اللامعيارية يمكن أن تنشأ من تعارض الطموحات وانهيار المعايير النظامية وأعاد صياغتها بشكل أوسع وعام حيث أن البني الاجتماعية تمارس ضغطا محددا على أشخاص معينين في المجتمع ليشتركوا في سلوك الحرافي مفضلين ذلك على السلوك الإمتثالي.

عرض **ميرتون** نظريته أولا في مقال بعنوان "البناء الاجتماعي واللامعيارية" عام 1938 وكانت افتراضات نظرية ميرتون في اللامعيارية والسلوك الإنحرافي كالآتي.

- تمارس بعض البنى الاجتماعية ضغطا محددا على أشخاص معينين في المجتمع ليمارسوا السلوك غير المتمثل بدلا من السلوك الإمتثالي.
- يمكن اعتبار السلوك الإنحرافي من وجهة نظر علم الاجتماع كدليل علامة) على الانفصال بين الطموحات المقررة ثقافيا والسبل المنظمة اجتماعيا لتحقيق هذه الطموحات.
- أنماط ردود الفعل للظروف البيئية التي تتجلى لدى الأفراد وهي:

➢ **الامتثال** : حيث يقبل الأفراد أهداف ومعايير المجتمع المشروعة لتحقيقها.

➢ **الانعزالية (الانسحاب):** عدم قبول أهداف المجتمع ولا وسائله المشروعة لتحقيق هذه الأهداف.

➢ **التجديد:** الميل إلى رفض وسائل المجتمع للحصول على الأهداف مع أن الفرد يقبل ويقدر الأهداف ذاتها.

- **الطقوسية:** رفض أهداف المجتمع مع عدم انتهاك قواعد هذا المجتمع.
- **التمرد** :حيث يصبح الفرد متحررا من أهداف المجتمع ونظمه ويستبدل بها أهدافه ووسائله الخاصة لتحقيقها

كما يوضح **Merton** أن بعض الأفراد يتعرضون بسبب إهمالهم من قبل الجماعة، وكذلك بسبب خصائص معينة في شخصياتهم إلى التوترات الناشئة عن التعارض بين الأهداف الثقافية والوسائل الفعالة لتحقيقها، ويكون هؤلاء الأفراد عرضة للسلوك الإنحرافي حيث النمط الثقافي وبناء طبقي معين أن النقص الكبير في التكامل بين الوسائل والغايات في يعملان معا على زيادة تكرار السلوك المضاد للمجتمع في هذه المجتمعات. ولذا نجد أن بعض الدارسين المهتمين بالإنحراف والجريمة يعتبرون أنه بالغ في التبسيط حيث أنه أدرج مجموعة كبيرة من الأنشطة تحت مقولة السلوك المنحرف دون أن يأخذ في إعتباره وجهة نظر أعضاء المجتمع أنفسهم.

ب - نظرية الاختلاط التفاضلي:

أقام عالم الاجتماع الأمريكي **إيدوينسوتر لاند Edwin Sutherland** هذه النظرية على جملة من العناصر مفادها:

- ✓ السلوك الإجرامي غير موروث يكتسبه الإنسان بالتعلم.
- ✓ يتعلم الشخص السلوك الإجرامي عن طريق الاتصال بالآخرين سواء بلغة التخاطب العادية أو عن طريق الإشارة أو التقليد.
- ✓ تتم عملية التعلم بين الأشخاص على درجة متينة من الصلة الشخصية أو على درجة واضحة من الصداقة، فالعلاقة بين هؤلاء الأفراد تكون علاقة أولية مباشرة تختلف درجتها وفقا لمدى تكررها ودوامها وعقدها.

- ✓ وعلى هذا يستبعد دور وسائل الاتصال كالصحف والسينما والتلفزيون ... الخ في تعليم السلوك الإنحرافي.
- ✓ تستهدف عملية التعلم المضمون الفكري لاتجاهات ومواقف الجماعة التي يختلط بها الفرد، فيتعلم منها مفاهيمها وتفسيرها للقانون.
- ✓ من ضمن ما يتعلمه الفرد من خلال انتمائه إلى جماعة منحرفة أساليب التخطيط والإعداد لارتكاب جريمة الوسائل اللازمة والمناسبة لتنفيذها.
- ✓ يصبح الفرد مجرما أو منحرفا عندما تتغلب عليه الاتجاهات الدافعة للإجرام ويحدث ذلك لدى الفرد المتفاعل بعمق مع جماعة ينتمون إلى ثقافة مرجعية منحرفة.
- ✓ للبيئة التنشيئية الاجتماعية دور فعال في اكتساب السلوك الإجرامي وفي تكوين الاتجاهات والميول الخاصة، فهناك بيئات اجتماعية تكسب أفرادها السلوك الإجرامي.

وقد قدمت انتقادات لهذه النظرية حيث أنها عجزت عن تفسير تفاوت الاستجابة بين شخص وآخر من المخالطين للعناصر الإنحرافية فينحرف بعضهم بينما لا ينحرف الكثير منهم كما أني عجزت عن تفسير جرائم الصدفة والجرائم العاطفية ولكن رغم هذه الانتقادات التي وجهت إليه تعتبر من النظريات الرائدة في تفسير سلوك الإنحرافي.

ج- نظرية الجماعة المرجعية:

تمثل نظرية الجماعة المرجعية أو ما يسمى بنظرية العصبة اتجاها اجتماعيا آخر في تفسير جنوح الأحداث وتتضمن هذه فكرة هذه النظرية، أن الفرد في سن المراهقة يجد في شلة الرفاق أو في العصابة (Gang)مصدرا لتنمية هويته وتعريف ذاته، كما أن الجماعة المرجعية تقدم لأعضائها نفس العوائد التي تقدمها الثقافة الفرعية ويرى بعض العلماء أن هذه الجماعة قد تكون البديل للأسرة في بعض الأحيان لأن الفرد يجد فيها ما يفقده في الأسرة.

من أبرز الذين نادوا بهذه النظرية عالم الاجتماع **فريدريكتر اشر Frederic Thrasher** في دراسة ميدانية قام بها حول (1313) عصبة أطفال في ولاية شيكاغو الأمريكية ضمت 25 ألف طفل من الأحداث والشباب توصل إلى:

- ✓ العصبة تخلق بصورة تلقائية من جماعات اللعب التي ينتمي إليها الأطفال، تتطور وتتحول إلى عصبة جائحة من خلال تجارب الصراعات مع الجماعات الأخرى.
- ✓ تطور العصبة روح الجسد الواحد والضمير الجماعي فيحمي أفرادها بعضهم البعض.
- ✓ تعتبر العصبة عامل مهم يسهل لأفرادها ارتكاب السلوك الإجرامي وانتقال أساليب الجريمة فأفرادها يتبادلون الخبرات الإجرامية.
- ✓ تقدم العصبة لأفرادها ما عجزت الأسرة في تقديمه للجانحين، فالعصبة سدت الفراغ الذي يعانون منه.

وما تجده في هذه النظرية أنها تقترب إلى حد ما مع ما جاءت به نظرية الاختلاط التفاضلي وتبرز دور عامل الضغط والقهر الاجتماعي الناشئ داخل هذه الجماعة الصغيرة التي تنشأ في بيئة ذات خصائص ملائمة لظهورها كعياب الضبط الأسري.

د. نظرية المناطق الجانحة:

لقد عالج الكثير من علماء الاجتماع والجريمة موضوع المجال الحي)، وأبرز علاقته بالانحراف والجريمة وتقوم غالبية الدراسات على افتراض أساسي، يقول أن الجناح أو السلوك ألإجرامي هما حصيلة تفاعل طويل يحدث بين الفرد وبين ظروف بيئته من جهة.

ومن أبرز من تناول هذه النظرية **كليفوردشو Clifford Shaw** الذي يؤكد على أن ظاهرة الانحراف الأحداث مرتبطة ارتباطا وثيقا بالبيئة المحيطة بالحدث في حيه، وهذا من خلال ثلاث عناصر: "الوضعية الاقتصادية للسكان الحراك الاجتماعي لهؤلاء السكان واختلاط الأجناس العرقية.

فالحي الذي تتوافق قيمه مع قيم المجتمع الكبير يكون حيا سويا، يهيئ للحدث جوا يكسبه الشعور بالاحترام والنظام والقانون، أما الحي الذي يخرج عن القيم الاجتماعية المتعارف عليها في المجتمع الكبير الذي يصبح مصدرا لتكوين بعض الاتجاهات الخاطئة التي تقود الحدث إلى الانحراف والجريمة. وقد حاول بعض العلماء وضع عناصر للحي الفاسد وتحديد معالمه التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتكوين سلوك المنحرف والدفع إلى العود إليه .

- الحي الفقير المزدحم بسكانه والذي يشيع فيه الفقر والرذائل الاجتماعية كمزاولة البغاء، والمقامرة ... الخ.
- الحي الذي يحمل خليطا سكانيا يجمع بين أفراد غير متجانسين ومن أقليات متعددة..
- في الأجانب وهو الحي الذي تتخذه أقلية معينة موطنا دائما، ورغم ما يعرف عن تجانس هؤلاء الأفراد الذين يمثلون أقلية واحدة، ولكن هذه الأحياء تنحدر إلى عزلة اجتماعية كبيرة، تشيه فيها الرذيلة والجريمة والجنوح على نطاق واسع، ويكاد يتفق الكثير من العلماء على الدور الكبير الذي تلعبه تلك العناصر الفاسدة وتأثيرها السلبي على النمو السوي للحدث وعلى نجاح المنظومة العقابية. في إصلاحه بعد إنهائه لمدة إصلاحه.

وباختصار فإن هذه النظرية تركز بوجه الخصوص على أهمية الظروف الاقتصادية السيئة التي تتميز بها بعض المناطق الحضرية في المدن الكبيرة بحث تصبح مثل هذه الظروف السيئة عوامل جوهرية تقود إلى معاناة الأفراد وصراعهم لتحقيق طموحاتهم وإلى ارتكاب السلوك الإنحرافي كبديل . غير مشروع لتحقيق طموحاتهم المشروعة وعلى العموم فإن هذه النظرية تفترض أن السلوك المنحرف سلوك مكتسب

للتعلم في إطار ظروف إيكولوجية ذات خصائص اجتماعية وثقافية واقتصادية تسهل عملية انتقال ثقافي بين أفرادها.

هـ- نظرية الوصم الاجتماعي

ترتكز هذه النظرية على فرضية أساسية مفادها أن الانحراف ظاهرة غير ثابتة تخضع في تعريفها إلى ردة فعل الجماعة تجاه السلوك، ولذلك يوهم فاعلها بوصمة الانحراف لخروجه على قواعد الجماعة. فالانحراف لا يقوم على نوعية الفعل بل على النتيجة التي ترتبت عليه أو على ما يطلقه الآخرون من صفة على الفاعل، وهناك من يرى أن الانحراف ينشأ عن مجموعة من المواقف والظروف تحدث نتيجة تعارض مصالح الأفراد وتصارع قيم داخل المجتمع.

ويعتبر العالم الأمريكي **أدوين لمرت(Lemert)** من أشهر من يمثل هذه النظرية، حيث يرى أن الانحراف في السلوك بوجه عام هو نتيجة حلل في التنظيم الاجتماعي القائم في أي مجتمع من المجتمعات الإنسانية ويقع على مستويات ثلاثة، فقد يقع على مستوى الفرد نتيجة ضغوط نفسية داخلية تؤثر على السلوك، وقد يقع الانحراف على مستوى الظروف نتيجة التعرض إلى بعض الضغوط البيئية التي لا تترك للفرد مجال للاختيار، أما الانحراف على مستوى التنظيم الاجتماعي فهو الذي يصبح الانحراف فيه أسلوب حياة مجموعة كبيرة من الأفراد مثل الجريمة المنظمة.

ويميز (**لمرت Lemert**) بين نوعين من الانحراف أحدهما أولي وهو الذي يأتيه الفرد مكرها وهو عالم بالحرافه ويشعر بالخوف والتردد، ثم يتطور الأمر إلى مستوى الانحراف الثانوي حيث يتلاشى الخوف تدريجيا ويصبح الفرد مدركا لنوعية الفعل الذي يقوم به وردة فعل ويأتي هذا مع تكرار الانحراف واكتساب الخبرة فيه إلى درجة الاحتراف، وهذا هو النوع الخطير من أنواع الانحراف.

ملخص هذه النظرية هو أن الانحراف عملية اجتماعية تقوم بين طرفين أساسيين هما الفعل المنحرف الصادر عن الفرد وردة فعل المجتمع تجاه ذلك الفعل من جهة أخرى، وتعتمد درجة التحريم ووصم المنحرف بصفة الإجرام لا على الفعل نفسه ولكن على مدى ردة فعل الآخرين تجاه ذلك الفعل .

التفسير التكاملي للانحراف والجريمة في ظل النظريات السابقة :

من خلال استعراض الاتجاهات التي تفسر السلوك المنحرف بإرجاعه إلى عامل واحد تبين صعوبة رد هذه الظاهرة إلى عامل واحد ونتيجة لذلك ظهر ما يسمى بالاتجاه التكاملي أو النظرية التكاملية في تفسير الجريمة والانحراف. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الانحراف والجنوح ما هوما إلا محصلة مجموعة من العوامل والظروف التي تحيط بالموقف، لأن السلوك يعتبر استجابة لموقف معين يرتبط بالفرد ككائن اجتماعي يعيش في أوساط اجتماعية عديدة كالأسرة المدرسة النادي المؤسسات المهنية ... وغيرها ويتأثر بعوامل متعددة كالعوامل الوراثية النفسية، الاقتصادية والاجتماعية .

وفي ضوء هذا الاتجاه الفكري قام **وليمهيلي Healy** بدراسة لعدد من الأحداث المنحرفين الذين حولوا إلى معهد بحوث الأحداث بشيكاغو، وقد شملت الدراسة الأساس الاجتماعي كل حالة ودراسة تاريخ تطور نموها وإجراء اختيارات طبية وسيكولوجية، وقد نشر هيلي نتائج هذه الدراسة سنة 1915م في كتاب بعنوان "**الفرد الجانح**" ، وكان من أهم هذه النتائج تأكيده على تعدد العوامل المسببة للجنوح وترابطها كما ذكر العالم الإنجليزي **سيرلبيرت Burt** في كتابه "**الجانح الصغير**" ما يزيد عن 170 عاملا من عوامل الجنوح، وهي تتدرج من الأهم إلى الأقل أهمية حسب حالة كل جانح هذا يعني وجود عوامل رئيسية ومساعدة على الانحراف بالدرجة الأولى وعوامل ثانوية إلا أنها . يجب إغفالها.

ويرى العالمين الأمريكيين **شيلدونو اليانور جلوك Sheldon and Eleanor Gluck** الإنسان على أنه وحدة عضوية نفسية اجتماعية العكس ذلك في بحوثها التتبعية، ونتج ذلك إلى إيجاد ثلاثة جداول للتنبؤ

بالجنوح، أحدهما يحتوي على عوامل اجتماعية مثل: معاملة الأب ورقابة الأم، واهتمام الوالدين، والترابط الأسري، والثاني خاص بالعوامل النفسية مثل: الرغبة في تأكيد الذات والتحدي، التشكك والميل إلى التخريب والاندفاعية، بينما يتعلق الجدول الثالث بعوامل الطب العقلية(المتأثرة بالجهاز العضوي) مثل: المخاطرة والانبساط والاستسلام والتعصب للرأي وعدم الاتزان الانفعالي.

ويشير حسن الساعاتي في كتابه علم الاجتماع الجنائي إلى أن بعض العلماء المحدثين بعد الحرب العالمية الثانية اتجهوا اتجاها تكامليا تجتمع فيه كل النظريات والمدارس، والاتجاهات التي تحاول التعرف على أسباب الجريمة وعلى أساس أن ترتكبها هو الإنسان كائن عضوي، نفسي، اجتماعي، أي مكون من أعضاء تؤدي وظائف معينة وفق نفس مفعمة بأحاسيس شعورية أو لا شعورية وسط دوائر بيئية متداخلة ومركبة، وفي إطار ثقافي شامل من القيم والعادات والأعراف والتقاليد.

ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه على أنه الاتجاه السليم في تفسير السلوك الإجرامي، فتفسير السلوك الإنحرافي لا يجب أن يقتصر على عامل واحد معين سواء كان هذا العامل بيولوجيا أو نفسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو غير ذلك. فالتفسير العلمي والمنهجي هو الذي يؤكد على تعدد العوامل التي تؤدي إلى السلوك المنحرف والعود إليه، فكل العوامل مترابطة فيما بينها، فكل عامل يؤثر ويتأثر بالآخر.